

*Dirassat & Abhath*

The Arabic Journal of Human  
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث

المجلة العربية في العلوم الإنسانية  
والاجتماعية

*EISSN: 2253-0363*

*ISSN : 1112-9751*

## المدارس النحويّة

### قراءة في المرتكزات المعرفية والاجتماعية

#### Grammar schools Reading in the cognitive and social foundations

Abdelkrim Benmahammed.

عبد الكريم بن محمد

أستاذ محاضر، جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريريج. كلية الآداب واللغات. قسم اللغة والأدب العربي. مخبر الدراسات اللغوية والأدبية المعاصرة

Abdelkrim.benmohamed@univ-bba.dz

تاريخ القبول : 2023-03-24

تاريخ الاستلام: 2023-02-28

## المخلص باللغة العربية:

تتناول هذه الورقة البحثية مسألة مصطلح المدارس النحوية في التراث العلمي العربي، وما نجم عنها من مناقشات فكرية ونقدية، تعدت إلى التشكيك في وجود المدارس النحوية في حد ذاتها، فتعددت المدارس يتأسس مبدئيا على التميز في المنهج البحثي المتبع في الدراسات العلمية المختلفة، وكذلك في النتائج الضابطة للقواعد المتوصل إليها من طرف كل مدرسة. تسعى هذه الدراسة إلى الحفر في الخلفيات المعرفية والاجتماعية التي كانت وراء شرعية وجود المدارس النحوية في التراث العلمي العربي.

الكلمات المفتاحية: المدارس النحوية، المصطلحية، المستشرقون، التراث العلمي العربي المرتكزات المعرفية...

**Absrtact:** This paper deals with the issue of the term grammar schools in the Arab scientific heritage, and the intellectual and critical discussions that resulted from it, which went beyond questioning the existence of grammar schools per se, thus the multiplicity of schools is initially based on the differentiate in the research curriculum followed in various scientific studies. This study seeks to dig into the cognitive and social backgrounds that were behind the legitimacy of the existence of grammatical schools in the Arab scientific heritage.

Keywords: grammar schools, terminology, the Arab scientific heritage, the orientalists, cognitive

## مقدمة

مسارات الدراسات النحوية في التراث العلمي العربي، وما انجرّ عن هذا الانشغال من وجهات نظر مختلفة سواء أكان ذلك الاختلاف على مستوى المصطلح أم على مستوى عدد هذه المدارس ذاتها.

لقد شغلت قضية المدارس النحوية بال الكثير من المستشرقين واللغويين العرب المحدثين ممن اهتموا بتاريخ

المعتقد الذي يذهب إليه، كما يطلق على الطريقة والأصل والاتجاه.

ومصطلح المذهب كان شائع الانتشار كثير الاستعمال - قديما - في علوم مجاورة متنوعة لعلم النحو. خاصة علم الفقه وأصوله. ولفظ المذهب لفظ عربي أصيل - في دلالاته اللغوية والاصطلاحية- في الثقافة العربية الإسلامية.

#### ب - المدرسة (school)

لفظ المدرسة اسم مكان من الفعل درس، يدرس درسا، وتقول: درست الكتاب أدرسه درسا، أي دلتته بكثرة القراءة حتى خف حفظه علي. والمُدْرَس: البيت الذي يدرس فيه القرآن..<sup>3</sup> وتعني كلمة المدرسة في عرف الاصطلاح مؤسسة اجتماعية، تطلق على:

- المكان الذي يُتلقى فيه العلم بجميع فنونه وأنواعه؛ أي المكان أو المؤسسة التي يجري فيه فعل التعليم والتعلم، وما يتوجب من تواجد معلمين ومتعلمين ومادة معرفية.

- مجموعة من العلماء أو الفلاسفة أو المفكرين أو الفنانين أو الأدباء؛ ممن يشتركون في جملة من المبادئ والأصول والأساليب "المدرسة"، مذهب واتجاه، جماعة من المفكرين أو العلماء وغيرهم ذات اتجاه واحد، وتقول برأي مشترك "مدرسة البصرة/ الكوفة/ الديوان..."<sup>4</sup>. ومن خلال هذا التعريف يتبين لنا أن فكرة تسمية المذاهب النحوية التي أفرزتها الثقافة العلمية العربية في تراثنا بمصطلح ( المدارس النحوية) كانت بفعل التأثير بالثقافة الغربية الحديثة التي عرفت مجموعة كبيرة من المدارس في مختلف العلوم والفنون على نحو الدراسات الأدبية الكبرى كالكلاسيكية والرومانسية وكذلك المدارس الفلسفية، والفنية والتقدية وغيرها.

#### المدارس النحوية في التراث العلمي العربي:

##### مدارس أم مذاهب؟

لم يستخدم علماؤنا القدامى مصطلح ((المدرسة)) لكن المصطلح الذي كان شائعا بينهم هو مصطلح ((المذهب))

من أجل معالجة هذه الإشكالية وتكوين رؤية واضحة حولها، كان لزاما علينا في هذه الورقة البحثية عرض آراء هؤلاء الباحثين من المستشرقين والمحدثين العرب. وذلك من خلال طرح التساؤلات الآتية:

- ماذا يُقصد بمصطلح "المدارس النحوية"؟

- هل كان لهذه المدارس كيانات على أرض الواقع؛ جسديتها دراسات ومناهج وغايات بحثية؟

- من هم مؤسسوها؟ وما البيئات التي احتضنتها؟

- ما أهم المرتكزات المعرفية والسياسية والاجتماعية التي أسهمت في بلورة فكر هذه المدارس وعملت على توجيه موضوعاتها واقتراح مناهج البحث فيها؟

#### المدارس النحوية المصطلح والمفهوم:

عندما يتابع أحدنا تاريخ الدراسات النحوية القديمة منها والحديثة تصادفها مصطلحات عدة منها: المذاهب النحوية، المدارس النحوية. مدرسة البصرة، مدرسة الكوفة، النحو البصري، النحو الكوفي، مدرسة بغداد النحوية، المذهب البصري، المذهب الكوفي. فمتى ظهرت هذه المصطلحات؟ وكيف كان مسار تطورها وعلاقتها بمختلف الدراسات النحوية القديمة؟

#### أ- المذهب (doctrine)

المذهب لغة؛ مصدر ميمي على وزن مفعل، مشتق من الفعل ذهب، يذهب، ذهابا. يطلق في اللغة على زمان الذهاب ومكانه. كما يطلق على الاتجاه أو الطريق الذي يذهب فيه "المذهب: مصدر كالدَّهَاب، المعتقد الذي يُذهب إليه<sup>1</sup> من ذلك قول النابغة الذبياني في اعتذاره للتعمان بن منذر<sup>2</sup>:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب  
لئن كنت قد بُلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغش وأكذب  
ولكنني كنت امرأ لي جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب  
أما اصطلاحا فغالبا ما لفظ المذهب يطلق على المنهج المتبع من طرف العالم أو أتباعه، سواء كان في الفقه أو في علم أصوله، أو في علوم العقيدة، كما يطلق عندما يوصف اتجاه شخص ما في الفكر أو الفلسفة أو الحياة بصفة عامة أو

قراءات، وعيسى بن عمر الثَّقَفِيّ البكريّ من مقدّمَي نحويّ البصرة<sup>12</sup> ولا نكاد نفارق القرن الرابع الهجري حتى يصادفنا أبو بكر محمد الحسن الزبيدي (316-379هـ) الذي يعتبر بحق أوّل من استعمل مصطلح المذهب إشارة إلى المذهب النحوي المتبع من طرف مجموعة من النحاة يتميّزون بمنهجهم الدراسي ومصطلحاتهم البحثية.

وكان الزبيدي أيضا هو أوّل من قسّم النحاة تقسيما منظما، مرتبا كتابه ترتيبا دقيقا وواضحا مراعيًا معياري المكان والزمان. حيث ورّع النحاة على خمس مجموعات (في النحو واللغة) وهذا التقسيم بقي معترفًا به إلى غاية يومنا هذا.

ينسب الزبيدي النحاة إلى بلدانهم، فالقاسم المشترك بينهم الانتماء إلى الليل، لا إلى وحدة المذهب النحوي؛ فلم يذكر مصطلح (المذهب) أثناء تصنيفه وتسميته للطبقات. إذ خصّ كلّ طبقة من الطبقات الخمسة، بمجموعة من النحويين واللغويين؛ فبدأ بطبقات النحاة (البصريين) ثمّ (الكوفيين) ثمّ (المصريين). ثمّ (القرويين) وأخيرا (الأندلسيين)

أما نحاة بغداد فقد نسبهم إلى المبرّد (ممثل المذهب البصري) أو ثعلب (ممثل المذهب الكوفي). أما مصطلح (المذهب) فقد وظّفه عندما ترجم لبعض النحاة أتباع المذهبيين البصري والكوفي، فلما وصل إلى ترجمة أبي موسى الحامضي نعتته بأنّه كان على مذهب الكوفيين في النحو واللغة، وقال عن ابن كيسان أنّه كان يعرف المذهبيين أي المذهب البصري والمذهب الكوفي، وكان بصريا كوفيا يحفظ القولين، ويعرف المذهبيين، وكان أخذ عن ثعلب والمبرّد. وكان ميله إلى مذهب البصريين أكثر<sup>13</sup>

وفي نهاية القرن الرابع الهجري نلتقي أبا عبيد الله المرزباني المتوفى (297-384هـ): صاحب المصنف (نور القبس) يقسم النحاة والعلماء والرواة إلى ثلاث طبقات:

-الطبقة الأولى؛ ضمت نحاة البصرة وعلماءها؛ بدءا من أبي الأسود من النحويين وانتهاء إلى الجاحظ وعمر بن شبة من الأدباء.

- الطبقة الثانية؛ ضمت علماء الكوفة ورواتها وقراءها..

ولعل أوّل إشارة إلى ما له علاقة بمصطلح المدرسة وردت طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (139-231هـ) " وكان لأهل البصرة في العربية قدمة، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية"<sup>5</sup>، فقد استعمل لفظ أهل البصرة للإشارة إلى نحاتها، ولما ذكر سير أبي الأسود الدؤلي، وأبي عمرو بن العلاء، وعبد الله بن إسحاق نسبهم إلى أهل البصرة، ولم يذكر لا مصطلح "المدرسة"، ولا مصطلح "المذهب"

أما بن قتيبة الدينوري أبو محمد عبيد بن مسلم (213-276هـ) فقد ذكر في مصنفه "المعارف" ترجمات لبعض النحاة فقد جمع بين نحاة البصرة والكوفة، فذكر أبا عمرو بن العلاء، يونس بن حبيب، حماد الراوية، الأصمعي، سيبويه، الكسائي... ولم يصفهم بالبصريين أو الكوفيين.<sup>6</sup>

وأورد أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (290-351هـ) -وهو من علماء القرن الرابع الهجري- في مصنفه (مراتب النحويين) - سيرا لأعلام النحو معتمدا على التسلسل الزمني، فاستهلها بذكر نحاة البصرة من دون نسبتهم إليها؛ حتّى إذا أتى إلى ذكر ترجمة يحيى بن يعمر، قال: " ولا يذكر أهل البصرة يحيى بن يعمر في النحويين، وكان أعلم الناس وأفصحهم"<sup>7</sup> وقد وصف أبا جعفر الرّؤاسي حين ترجم له بأنّه عالم الكوفة، "وممن أخذ عن أبي عمرو أبو جعفر الرّؤاسي عالم الكوفة"<sup>8</sup> ثمّ يسرد بعض تراجم لنحاة الكوفة ويتبعهم بنسبتهم إلى الكوفة "والذين ذكرنا من الكوفيين هم أئمتهم في وقتهم"<sup>9</sup>،

ويثني أبو الطيب على نحاة من البصرة، ويشيد بفضيلهم وإمامتهم للبصريين والكوفيين عامة بقوله: "فأما من ذكرنا من علماء البصرة، فرؤساء علماء معظمون غير مدافعين في المصرين جميعا"<sup>10</sup>، ويصف أبو الطيب اللغوي مدرسة البصرة والكوفة بالمصريين " فلم يزل أهل المصرين على هذا حتّى انتقل العلم إلى بغداد."<sup>11</sup>

في مؤلفه (أخبار النحويين البصريين) يقتصر أبو سعيد بن عبد الله السّيرافي (284-368هـ) في سرد تراجم النحاة على البصريين دون سواهم من النحاة، وسماههم البصريين أو من أهل البصرة. ويذكر الكوفة عندما ينفي انتساب عيسى بن عمر إلى الكوفة بقوله "فهو عيسى بن عمر الثَّقَفِيّ، من أهل البصرة، وليس بعيسى بن عمر الهمدانيّ من أهل الكوفة. وتروى عنه

وألف شوقي ضيف كتابا سماه (المدارس النحوية). وألف الدكتور عبد الرحمن السيد كتابا سماه ((مدرسة البصرة النحوية)).

أما مدلول مصطلح (( المدرسة )) فإنَّ أوَّل من حاول تحديده هو مهدي المخزومي في كتابه مدرسة الكوفة أثناء حديثه عن الكسائي "إنَّ الكسائي بمنهجه وأساليب دراسته مدرسة لها خصائصها ومميزاتها، فليست المدرسة إلا أستاذا مؤثرا وتلاميذ متأثرين، وقد اجتمعوا على تحقيق غرض واحد ونهجوا للوصول إليه نهجا واحدا"<sup>18</sup>

وقد تابعه الدكتور أحمد مكي الأنصاري فعرف المدرسة بآنها" اتجاها له خصائصه مميزة، ينادي بها فرد أو جماعة من الناس ثم يعتنقها آخرون"<sup>19</sup>

كما يؤدي المصطلح مفهوم " الاشتراك في وجهة النظر الذي يؤلف الجهة العلمية، ويربط العلماء بعضهم ببعض على رأس واحد"<sup>20</sup>

#### - مدرسة أم مدارس نحوية؟

ينكر الباحث أبو المكارم وجود مدارس نحوية في التراث العلمي العربي، ويعتقد أنَّ فكرة وجود مدارس نحوية، وأنَّ لكل مدرسة منهجا خاصا وأسلوبا مغايرا في معالجة المسائل، فكرة تحتاج إلى نظر دقيق وطرح موضوعي. إذ يرى الزعم بوجود هذه المدارس ما هو إلا توهّمات، وماهي إلا تجمعات تتحرك في مسارات متشابهة، تلتزم في دراساتها منهجا موحدًا، وأصولا ومشاركة، وهو التزام لا ينفى بأي شكل من الأشكال وجود بعض الاختلافات الجزئية بينها.<sup>21</sup>

ومن أنصار وجود مدرسة نحوية واحدة المستشرق جوتولد فايل، إذ يعتقد أن النَّحو العربي لم يعرف إلا مدرسة واحدة؛ هي مدرسة البصرة، ويشكك في وجود مدرسة نحوية أسمها مدرسة الكوفة. ويقول أنَّ آراء الكسائي والفراء ماهي إلا امتداد لآراء يونس بن حبيب، متخذًا دليله وحجته من الاختلافات التي كانت تحدث بين الكسائي والفراء.<sup>22</sup>

وقضيّة اختلاف الكسائي مع الفراء ليست دليلا قاطعا ولا كافيًا على عدم الاعتراف بوجود مدرسة تالّية لمدرسة البصرة، وتعرف بمدرسة الكوفة؛ فمسائل الخلاف بين النحاة أفرادا

- الطبقة الثالثة؛ ضمّتها العلماء والنحاة والرواة من أهل بغداد.

لم يستخدم المرزباني مصطلح (المذهب). لكنّه سبق ابن النّديم إلى تقسيم النّحويين إلى ثلاث مجموعات: أهل البصرة، أهل الكوفة ، أهل بغداد نسبة إلى بلدانهم.<sup>14</sup>

ما يلفت الانتباه في تقسيم ابن النديم (385هـ) للنحاة في فهرسته أنّه تبع تقسيم المرزباني، وخالف الزّبيدي بوصفه نحاة بغداد بمن خلط المذهبيين. ويعتبر المؤرخ الثاني بعد الزّبيدي، في استعماله مصطلح المذهبيين" وكان ابن قتيبة يغلو في البصريين إلا أنّه خلط المذهبيين"<sup>15</sup>

والرأي الذي نخلص إليه استنادا إلى ما ورد في مصنفات علمائنا القدامى حول الدرس النّحويّ، إنّ المصطلح الذي كان شائعا عندهم كثير التّداول هو (المذهب) الذي يراد به مجموعة من طبقات النّحويين التي تميّزت بأسلوبها الخاصّ والاعتماد على منهج موحد في دراساتها وتميّزها أيضا بالمصطلحات التي تستعملها.

#### المدارس النحوية: المصطلح والمفهوم عند المحدثين

يعود الفضل في تناول قضية المدارس النحوية في التراث العربي في العصر الحديث إلى جماعة من المستشرقين، ثم تبعهم ثلة من الباحثين العرب المحدثين، أمثال محمد الطنطاوي وشوقي ضيف، سعيد الأفغاني، ومهدي المخزومي، وإبراهيم أنيس وغيرهم.

بعدّ المستشرق بروكلمان أوّل من استعمل مصطلح المدرسة " وقد قسم علماء العربية مذاهب النحاة إلى ثلاث مدارس: البصريون والكوفيون ومن مزجوا بين المذهبيين من علماء بغداد"<sup>16</sup> كما ورد استخدام لفظ مدرسة لدى المستشرق جوتولد فايل، في مقدمته لكتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، حيث استعمل مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة"<sup>17</sup>

ولعل الدكتور مهدي المخزومي أوّل الباحثين العرب المحدثين من تبني هذه التسمية فسعى أحد كتبه ((مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللّغة والنحو)).

يوجد فريق رابع يؤمن بوجود ثلاث مدارس كأحمد أمين<sup>28</sup> وسعيد الأفغاني، حيث يعتقد أصحاب هذا الاتجاه بوجود فريق بصري، وفريق كوفي، وفريق ثالث خالط بينهما. حيث يرى سعيد الأفغاني أن المذهب الثالث الذي نشأ في بغداد بسبب انتشار المذهبين -المذهب البصري والمذهب الكوفي- فنشأ عنهما مذهب ثالث اتسم بالانتخاب من المذهبين وعُرف بالمذهب البغدادي<sup>29</sup>، أما عبد الفتاح شلبي فلا يقرّ بوجود المدرسة البغدادية، بل هي عبارة عن مجموعة من النحاة مزجوا بين نحو المدرستين: الكوفة والبصرة يقول في كتابه (أبو علي الفارسي): "وغاية ما في الأمر أن رجالا خلطوا بين المدرستين البصرية والكوفية، فأروا رأيا من هذه ورأيا من الأخرى، وإن كانوا في مذهبهم الأصيل يميلون إلى هذه ويميلون إلى تلك فيكونون بصريين أو كوفيين.."<sup>30</sup>

دافع أحمد مكي الأنصاري بحماسة عن وجود ثلاث مدارس نحوية: مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة، والمدرسة البغدادية التي مزجت بين منهجي المدرستين وخصائصهما ويرى أن الفراء هو المؤسس الحقيقي للمدرسة البغدادية حيث قام بالانتخاب والمزج بين المدرستين: البصرية والكوفية.<sup>31</sup>

يمثل الأستاذ طه الرواي الفريق الخامس الذي يذهب إلى وجود أربعة مذاهب نحوية، اثنان منها أمات: المذهب البصري والمذهب الكوفي، ومذهبان فرعيان، هما: المذهب البغدادي؛ وهي امتداد للمدرسة الكوفية، والمذهب الأندلسي؛ وهي امتداد للمدرسة البصرية.<sup>32</sup>

ربما قد يكون شوقي ضيف هو أول من بحث بدقة ومنهجية علمية في مسألة المدارس النحوية، فقسّمها إلى خمس مدارس: المدرسة البصرية هي الأم والمؤسسة للنحو العربي أصوله ومنهجه، ثم المدرسة الكوفية، وقد نشأت متأخرة نسبيًا عن المدرسة البصرية، والمدرسة البغدادية، المدرسة الثالثة التي قامت على خاصيتي الانتخاب والمزج بين آراء أعلام المدرستين (البصرية والكوفية) مع الاجتهاد.

أما رابعة المدارس فهي المدرسة الأندلسية، التي أخذت بأراء نحاة البصريين والكوفيين والبغداديين. والمدرسة الخامسة هي المدرسة المصرية التي أخذت في بداية عهدها بأراء المذهب

وجماعات، لم تقتصر على نحاة الكوفة وحدهم، بل كانت معروفة بين نحاة المدرسة البصرية نفسها أيضا، فكم هي المسائل التي خالف فيها سيويه الخليل. وقد خالف يونس الخليل في أكثر من مائتي مسألة من مسائل النحو واللغة والصرف والأصوات. وكذلك المبرد الذي ألف كتابا يبين فيه المسائل التي غلط فيها سيويه. غير أن هذه الاختلافات التي كانت موجودة بين أئمة نحاة البصرة لم تكن مدعاة للتشكيك في المدرسة " ومع كل هذا لم يقل أن الخليل وسيويه ويونس والأخفش والمبرد لا يكونون مدرسة، وأن لكل واحد منهم مدرسة قائمة بذاتها "<sup>23</sup>

أما أصحاب الاتجاه الثالث فيقرّون بوجود مدرستين: المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية، وينكرون وجود مدرسة نحوية ثالثة؛ اسمها مدرسة بغداد. ويعتبر مهدي المخزومي أحد أعلام هذا الاتجاه، فيقول: «تردد اسم البغداديين كثيرا في أثناء القرن الرابع بإزاء الكوفيين والبصريين حتى ليخيل للدارس أن البغداديين كانوا يمثلون جماعة ثالثة، لهم طريقتهم الخاصة ومذهبهم المتميز، وجاء المتأخرون من النحاة فأروا اسم البغداديين يذكر إلى جانب الكوفيين والبصريين، فذهب بهم الوهم بعيدا وراحوا يركبون الصعب في تصوير مذهب ثالث يقف بإزاء مذهب أهل البصرة ومذهب أهل الكوفة، وهو مذهب البغداديين "<sup>24</sup> في كتابه مدرسة الكوفة يرى رأيا آخر، ويقر بوجود مدرسة ثالثة هي مدرسة بغداد؛ تقوم على مبدأ التوفيق بين المذهبين البصري والكوفي، لأن أصحابها كانوا قد أخذوا نحوهم عن علمين من أعلام البصرة والكوفة وهما المبرد وثعلب " وعند ثعلب يتوقف النشاط الكوفي، بوصفه مزاحما للنشاط البصري، ففي عهده ظهرت بوادر جديدة، تؤذن بقيام مدرسة نحوية جديدة، تقوم على أسس من المدرستين "<sup>25</sup>

ويقّر عبد الرحمن الحاج صالح بوجود مدرستين اثنتين تختلفان اختلافا عميقا في كثير من المسائل، خاصة في مناهج البحث والمصطلحات. وهذا في حد ذاته يعتبر معيارا صادقا لتمييز كل مدرسة عن أختها، لكنهما يتفقان أيضا في كثير " وما اشترك فيه الكوفيين مع البصريين كثير، ويدل على أن المصدر البعيد واحد "<sup>26</sup> أما فيما يخص النحو البغدادي، فهو لا يرى أن يوصف بالمدرسة، فالنحاة البغداديون هم أتباع المبرد وثعلب وأصحابهم.<sup>27</sup>

إهمال لعناصر ثقافية وعلمية عربية موروثه كانت مشكلة لحاضره مضمرة في ضميره.

كان القرآن الكريم منطلق الدراسات العلمية التي عرفها العرب، خاصة علوم اللسان العربي، فكانت البدايات الأولى محاولة لتفسير بعض الظواهر اللغوية وشرح الألفاظ الغريبة التي تضمنها النص القرآني. لقد كانت البدايات الأولى للدرس النحوي البصري قرآنية ثم صارت قرآنية لغوية، ثم انتهت إلى لغوية خالصة. وبما أن القرآن نزل بلسان العرب المبين، اتخذته النحاة الأوائل مصدرا رئيسا في تثبيت القاعدة النحوية. وظلت الآيات القرآنية أفضل الشواهد والأمثلة التي اعتمدها كل المدارس النحوية المشرقية منها والمغربية.

## 2- كلام العرب:

يعتبر كلام العرب الفصيح (نثرا وشعرا) المدونة المفتوحة الكبرى للنحاة الأوائل الذين قاموا بعبء التأسيس لعلم النحو من الذين كانوا ينتمون إلى المدرستين الأوليين (البصرية والكوفية) ثم تبعتهما باقي المدارس التي ظهرت بعدهما. وما يفسر لنا سر مركزية كلام العربي الفصيح في المدونة التي صنعها اللغويون والنحاة، تنوع الخطاب الذي يتوفر عليه كلام العرب الفصيح وكذا المستويات اللغوية المتنوعة والتي تمثل أحد الشروط الواجب توفرها في المدونة اللسانية لكي تفتك شرعية العلمية والموضوعية وتكون صالحة لتعميم القواعد النحوية الضابطة لكلام العرب الفصيح. ومن ثم تكون هذه القواعد المستنبطة عن طريق استقراء كلام العرب وسيلة مفيدة لكل من أراد تعلم اللسان العربي من الأعاجم.

## 3- علم الحديث الشريف:

لا أحد ينكر الدور الرائد الذي قام به علماء الحديث الشريف في وضع الأسس العلمية للبحث العلمي، ولا غرابة أن يتأثر النحاة على اختلاف مذاهبهم بمنهج علم الحديث ومصطلحاته وطرائق تحليله واستنباطه للأحكام، ومنهجه أيضا في علم الرواية سواء تعلق الأمر بالراوي وما الشروط الواجب توفرها فيه أم تعلق الأمر بالروية نفسها كنص، قابل للدراسة والنقد مضمونا وشكلا.

## 4- علم الكلام:

البصري، ثم ما فتئت أن أخذت تجمع بين مختلف آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين.<sup>33</sup>

وقد استهل شوقي ضيف كتابه (المدارس النحوية) بالحديث عن المدرسة البصرية لأنها هي التي كانت وراء نشأة النحو العربي، وتم بفضل نحاتها تحديد مجال دراسته، وتمييز مسائله واتضح على أيديهم معالم المنهج، وضبطت مصطلحاته " وكان طبيعيا أن أبدأ بالمدرسة البصرية لأنها هي التي وضعت أصول نحونا وقواعده ومكنت له من هذه الحياة المتصلة التي لا يزال يحيها إلى اليوم، وكل مدرسة سواها فإنما هي فرع لها وثمرة تالية من ثمارها"<sup>34</sup>

وتقف الباحثة خديجة الحديثي موقفا توفيقيا منصفًا؛ فهي ترى أنّ الأفضل الأخذ بالتقسيم الزبيدي والذي أخذ به شوقي ضيف في العصر الحديث.<sup>35</sup>

لقد أصلت البصرة للنحو العربي، فوضعت أسسه وميزت أصوله وفروعه، وأصلت منهجه، وحددت موضوعه بدقة. ثم سرعان ما نشأ النحو الكوفي متفرعا عنها. وعنهما تأسس المذهب البغدادي، توسعت دائرة الدرس النحو العربي شرقي الدولة الإسلامية وغربها؛ فشملت الشام ومصر والمغرب الإسلامي.

## المرتكزات المعرفية والاجتماعية والسياسية للمدارس النحوية

لقد ارتبط ظهور المذاهب النحوية (المدارس) شأنها شأن بقية النشاطات والحركات العلمية والفكرية والثقافية بمجموعة من العوامل المتنوعة شكّلت سياقًا اجتماعيًا عامًا وقتئذ، وإن كان العامل الأكبر للقرآن الكريم وما أفرزته الدعوة المحمدية أو الدين الإسلامي.

## 1- القرآن الكريم:

ولقد أحدث القرآن الكريم نقلة نوعية في حياة الإنسان العربي، فانتقل من طور البداوة إلى طور الحضارة التي تعتمد أساسا على شبكة من العلاقات الاجتماعية، بنيت على الفعلية الاجتماعية المنفتحة على الذات وعلى الآخر، دونما

طبيعة جدا، دون حرج أو رفض من طرف معين، لأنّ الظاهرة ارتبطت بالهجات العربية الفصحى في عمومها.

فهي تفسر وجها من وجوه الاستعمال الفعلي للعربية لدى قبيلة عربية أو أكثر، أي تأدية لهجّة لغة من لغات العرب الفصيحة في شبه الجزيرة العربيّة. ولذا كان طبيعيا أن نرى أوجها من هذا الخلاف لدى نحاة ينتمون إلى مدرسة واحدة.

لكنّ سرعان ما اتّسعت دائرة الخلاف النحويّ، وتعدّدت أسبابه وغاياته، خاصّة بين نحاة البصرة ونحاة الكوفة والذي كان في أساسه بدافع من التعصّب للرأي الشّخصي أو ربما للتنافس على الشهرة ورغبة الظهور على حساب الخصم أو طمعا في عرض من أعراض الدنيا. ولعلّ مناظرة المسألة الزنبورية التي دارت بين الكسائي وسيبويه في بلاط هارون الرشيد، خير مثال على ذلك. لقد أسهمت هذه المناظرة في تأجيج روح المغالبة لدى الفريقين (أتباع سيبويه والكسائي) وربّما كان سببا قويا وعملا حاسما عجّل بميلاد مذهب نحوي جديد يكاد يضاهي المذهب البصري، ونعني به المذهب الكوفي.

#### أ- تعدد القراءات القرآنية:

لقد كان تعدد القراءات القرآنية واختلاف النحاة إزاءها عاملا مهما في بلورة فكرة الاستقلالية في المذهب والاتّجاه النحويّ، وهذا ما كان يحدث بين المدرستين البصرية والكوفية، من قبول أو رفض لقراءة معينة، أو مدعاة للتأويل والتعليل لتنسجم مع روح القاعدة النحوية المستنبطة بالنسبة لأكثر من أعلام المدرسة البصرية. وكان الاختلاف في التفاعل البصريين والكوفيين مع القراءات القرآنية الشاذة أثناء الحديث عن القواعد النحوية والاحتجاج لها مؤشرا بارزا في بداية انشطار الحلقة النحويّة الواحدة إلى حلقات متعددة تنتشر شرقا وغربا. والحق أنّ تعدّد القراءات كان دافعا قويا للنحاة كي يبحثوا في المسألة محاولة منهم إيجاد تخرجات لها من خلال البحث عن شواهد من لغات العرب ولو كانت شاذة لدعم هذا ظاهرة التعدد في القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربيّ مبين مستوعبا قدرا كبيرا من معهود كلام العرب.

#### ب- العامل التجاريّ

لقد بدأ تأثير علماء الكلام كبيرا على بعض النحاة المتأخرين عن الطبقات الأولى سواء أكانوا بصريين أم كوفيين أم بغداديين ومن جاء بعدهم من أهل الشام والمغرب والأندلس. ولقد ظهر هذا التأثير على مستوى المنهج والمصطلح وطريقة التعليل والاحتجاج والجدال والمناظرة، وقد طال هذا التأثير نحاة الطبقات المتأخرة لأعلام المدرسة البصرية والكوفية. كاد أن يخرج علم النحو عن مساره العلمي السليم الذي وضعه الخليل وأتباعه.

وكان تأثير علم الكلام أشدّ وقعا على نحاة بغداد. وكان لأبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني دور عظيم في انتهاج نحاة المدرسة نهج المتكلمين والتأثر بأساليبهم الكلامية.

#### 5- الفقه وأصوله:

لقد ترعرع النحو العربي بين أحضان العلوم الإسلاميّة وكان علم الفقه وأصوله أبرز هذه العلوم تأثيرا، حيث أثر في توجيه الدراسات النحوية أيما تأثير منذ اللحظات الأولى من تأسيسه على يد أعلام نحاة المدرسة البصرية أيام عبد الله بن العباس حبر العلماء. وقد عرف عن كثير من النحاة مصادقهم للفقهاء. وكان بعض النحاة جمعوا بين علم العربيّة وعلم الفقه وأصوله، وهذا أبو عمر الجرمي الفقيه النحوي يقول: «أنا منذ ثلاثون أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه»<sup>136</sup> أخذ النحاة الكثير من مصطلحات علم أصول الفقه، مثل الأصل، والفرع، والعلة، القياس وأما من حيث منهج الدراسة

#### 6- النحو البصري:

النحو البصري كان مصدرا رئيسا لكل المدارس النحوية التي ظهرت بالشرق العربي أو مغربه، بما في ذلك المدرسة الكوفية، وظل الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه نقطة وصل تربط مختلف المدارس النحوية ومرجعاً يرجع إليه في المسائل النحوية الكليّة.

#### 7 - فقه الخلاف النحوي ومبرراته:

تعامل جمهور النحاة العرب القدامى - منذ البدايات الأولى لظهور علم النحو العربي- مع ظاهرة الخلاف النحوي بطريقة

وكان لتشجيع الأمراء والولاة للحركة العلمية - بدافع التنافس والظهور - دور في تعدد هذه المدارس وتفتتها في معالجة المسائل الخلافية.

#### خاتمة:

إنّ المدارس النحويّة في التراث العربي واقع، لا يمكن إنكاره، فالمخزون العلمي الذي ورثناه عن عبقرية أسلافنا القدامى لا يقدر بثمن. وإنّ التنوع في الاختلاف لا يضر بالقيمة العلميّة لهذه المدارس. وإجماعها على الأصول التي استمدت منها مادتها، واتفاقها في الأخذ من العلوم المجاورة كأصول الفقه وعلم الكلام، لا يختزلها في مذهب واحد أو مدرسة محددة.

أمّا فيما يخصّ المصطلح، فمصطلح " المذهب " هو أقرب إلى روح الثقافة العربيّة الإسلاميّة، نبت في تربتها وشب وترعرع في ربوعها. وإن كان مصطلح " المدرسة " وفد إلينا من ثقافة الغرب، فإنّه غير معبأ بروحها وخصوصيتها.

وتبقى المدرسة البصريّة أيقونة النحو العربيّ به شرفت، وبها سطع نجمه. وفيها عاش عالقة اللسان العربيّ وعباقرته، أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، وأبو عمرو بن العلاء، وعبد الله بن أبي إسحاق وغيرهم كثير.

#### مراجع البحث:

كان سوق مريد فضاء يلتقي فيه الشعراء والأدباء والنقاد، وساحة للمناظرة والمطارحة والمساجلة، أسهم بقسط وافر في ازدهار الدرس النحوي لدى المدرسة البصرية. لكن سرعان ما ظهر سوق الكناسة بالكوفة موازيا له، يؤمه الفصحاء من العرب، أو ممن خالطوا الأعاجم، فتأثرت ألسنتهم بفضل احتكاك لهجاتهم بلغات الأعاجم. ودور الأسواق في احتضان الشعراء والعلماء ليس جديدا على البيئة التي نشأت فيها المذاهب النحويّة، بل كان الأمر معهودا لدى العرب منذ العصر الجاهلي.

#### ج - تنوع المدونة اللغويّة:

كانت المدونة اللغوية البصرية مغلقة مشروطة، فلا يمكن الإخلال بالشروط التي بنيت عليها، فلا تقبل إلا الكلام العربي المأخوذ عن الفصحاء العرب غير المخالطين للأعاجم، وفي زمن ومكان محددين. معتمدين على معايير صارمة؛ كالإطراد والشبوع والكثرة في الاستعمال بينما رأينا نحاة الكوفة يأخذون لغتهم عن الأعراب - من دون تحرج - ممن سكنوا البوادي أو الحضر. وهذا ما وفر للمذهب الكوفي متسعا أكثر للتميز عن المذهب البصري. وظلّت كل المذاهب التي تفرعت عن المذهب البصري والكوفي تابعة في توجهها البحثي لكلا المذهبين.

#### د- العامل السياسي:

كان للعامل السياسي دور كبير في ظهور المذاهب النحويّة لاسيما مدرستا البصرة والكوفة، فالبصرة كانت أموية النزعة بينما كانت البصرة مناصرة للعلويين والعباسيين.

ولما انتصر دعوة العباسيين على الأمويين، واستولوا على الخلافة والحكم، ردوا جميل أهل الكوفة، فقربوا علماءها وفضلوهم على علماء البصرة التي كانت مناوئة لهم.

- 14 – أبو محمد بن عمران المرزباني عبيد الله نور القبس. تحقيق رودلف زلهاميم. (د.ط) فرانتس شتاينر بفيشبادن. ألمانيا: 1964.ص:310.
- 15 ابن النديم. الفهرست. د.ط. دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت. لبنان.ص:115
- 16 – كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي. الجزء الثاني. ط5 دار المعارف. مصر: 1977. ص:124،125.
- 17 – أبو البركات الأنباري. الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين. تحقيق جودة مبروك محمد مبروك. د.ط. مكتبة الخانجي. القاهرة. مصر:2002..
- 18 مهدي المخزومي. مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو الطبعة الثانية. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر:1958.ص:129
- 19-أحمد مكي الأنصاري. أبو زكرياء الفراء ومذهبه في النحو واللغة. الطبعة الأولى. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب مصر:1964.ص:303..
- 20 – مقدمة الإنصاف.
- 21 – عليّ أبو المكارم. تقويم الفكر النحوي. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. مصر: 2005. ص: 243،244.
- 22 – مقدمة الإنصاف (نقلا عن تاريخ الأدب العربي لبروكلمان) الجزء الثاني ص:127.
- 23 – المدارس النحوية. خديجة الحديثي. ط3. دار الأمل. غريب الأردن: 2001.ص:15،16.
- 24 – مهدي المخزومي. الدرس النحوي في بغداد. سلسلة الكتب الحديثة. وزارة الإعلام. الجمهورية العراقية:1974
- ص:5
- 25 – مدرسة الكوفة. ص:392.
- 1 – أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور. لسان العرب (المجلد 3). دار إحياء التراث العربي. بيروت - لبنان: (1999). ص:67
- 2 –النايعة الذبياني. ديوان النايعة. تحقيق محمد الطاهر بن عاشور. (د. ط) الشركة التونسية للتوزيع. تونس: . 1976 ص:55.
- 3-لسان العرب ا.المجلد الثالث.ص:330،331.
- الفيروزآبادي، مجد الدين، محمد بن يعقوب.القاموس 4 المحيط. تحقيق أنس محمد الشامي وزكرياء جابر. دار الحديث. القاهرة: 2008.ص:544،545
- 5 – محمد بن سلام الجمعي. طبقات فحول الشعرا. تحقيق محمود محمد شاكر. دار المدني. جدة.:د.ت.ص:12.
- 6 - أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري. المعارف. ترجمة ثروت عكاشة. الطبعة الرابعة. دار المعارف. مصر:د.ت.ص:540 وما بعدها.
- 7 – عبد الواحد بن علي أبو الطيب اللغوي مراتب النحويين. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. د.ط. المكتبة العصرية.لبنان: 2009.ص:42.
- 8 – المرجع نفسه.ص:39.
- 9 – المرجع نفسه.ص:42.
- 10- المرجع نفسه.ص:42.
- 11 – المرجع نفسه.ص:109.
- 12 – أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي. أخبار النحويين البصريين. تحقيق طه محمد الزيتي ومحمد عبد المنعم الخفاجي. د.ط. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر: (د.ت) ص:25.
- 13 – أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي. طبقات النحويين واللغويين. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثانية. درا المعارف. مصر: 1984.ص:153.

- 31 - خديجة الحديثي. المدارس النحوية. ص:20.
- 32 - المرجع نفسه. ص:20.
- 33 - شوقي ضيف. المدارس النحوية. الطبعة السابعة. دار المعارف. مصر: 1968. ص:7.
- 34 - المرجع نفسه. ص:5.
- 35 - خديجة الحديثي. المدارس النحوية. ص:23.
- 36 - طبقات النحويين واللغويين. ص:75.
- 26- عبد الرحمن الحاج صالح. منطق العرب في علوم اللسان. موقف للنشر. الجزائر: 2012. ص:258.
- 27 - المرجع نفسه. الصفحة نفسها.
- 28 أحمد أمين. ضحى الإسلام. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. مصر: 2012. ج2. ص:294-298.
- 29 - سعيد الأفغاني. في أصول النحو. (د.ط.) المكتب الإسلامي. بيروت. لبنان: 1987. ص:229، 230.
- 30 - عبد الفتاح إسماعيل شليبي. أبو علي الفارسي. الطبعة الثالثة. دار المطبوعات الحديثة. المملكة العربية السعودية: 1989. ص:445، 446، 447.